من عجيب ما امتازت به العربية أن تغيير حركة واحدة قد ينقل اللفظ من معنى إلى آخر، مع بقاء حروفه وترتيبه على حالهما.. ومن هنا كانت المثلثات اللغوية إحدى الشواهد الباهرة على سعة هذه اللغة ومرونتها، حتى غدت بابًا من أبواب البيان الذي يكشف عن طاقتها الفريدة في توليد المعاني وتكثيرها من أقل الوسائل وأدقها.

ويرتبط هذا الفن باسم أبي علي محمد بن المستنير البصري، المشهور بلقب "قطرب" أحد تلامذة سيبويه. وتذكر كتب التراجم أن سيبويه هو الذي لقبه بذلك، تشبيهًا له بدويبة صغيرة لا تهدأ من الحركة، إذ كان يأتي إلى أستاذه في الأسحار، يطرق بابه باكرًا ويكثر من السؤال والبحث، فصار مضرب المثل في الجد والمثابرة وطلب العلم.

وكان له العديد من المؤلفات، من أشهرها كتاب "معاني القرآن"، وكتاب "الأضداد"، وكتاب "النوادر". غير أن اسمه ارتبط على وجه الخصوص بما عُرف لاحقًا بـمثلثات قطرب، حتى كاد هذا الفن أن يكون عَلَمًا عليه.

وتقوم المثلثات اللغوية على ألفاظ تتحد حروفها وترتيبها، ثم تختلف معانيها باختلاف الحركة الواقعة على أحد حروفها. فالكلمة الواحدة تُقرأ بالفتح فتؤدي معنى، وبالكسر فتؤدي معنى آخر، وبالضم تدل على معنى ثالث، مع بقاء البنية الحرفية على حالها. وكأن الحركات هنا ليست زينة لفظية أو علامات صوتية عارضة، بل مفاتيح تفتح أبوابًا متعددة للدلالة.

ولم يغب هذا الثراء عن أنظار الأدباء والشعراء؛ إذ وجدوا في المثلثات معينًا لا ينضب للتفنن في القول، ومجالًا رحبًا لإظهار براعتهم في التصرف بالألفاظ. فالكلمة الواحدة قد تتكرر في النص أكثر من مرة، بينما يختلف معناها في كل موضع، فينشأ عن ذلك لون من ألوان الجناس البديع، وتتحقق للنص موسيقى خفية تنبع من تشابه المباني واختلاف المعاني.

ولعل أجمل ما مر على مسامعي مؤخرا في هذا الخصوص قصيدةٌ لشاعرٍ سعودي جعل من المثلثات اللغوية عماد هجائه لمديره، فحوّل هذا الفن المعجمي، الذي قد يبدو جافًا في ظاهره، إلى بناء شعري نابض بالحياة، تتعاقب فيه الألفاظ المثلثة تعاقبًا يبرز ثراء العربية وسعة تصرفها في المعاني، حتى بدت الحركات مفاتيحَ يفتح بها الشاعر أبوابًا متعاقبة من المعاني والسخرية والشكوى.، فقال:

كَلمني رحبُ الجَناب يظنني سهل الجِناب
ربي أَصِبه بالجُناب لغبنه في تعبي
بالفتح عزٌ مُلتَمس والكسر طيع سَلِس
والضم ضيق بالنفس يُعرف ذات الجُنُبِ
تَبْت يداه وهو تَبٌ قلت له ويحك تُب!
قال لي ترقى الناس .. تِب، واعزف عن التَحَسُبِ
بالفتح معناها خَسر والضم لله المَفَر
والكسر أمر بالضرر وصيغة إلى اتْبِبِ
ما كنت عي الحُجّة دعواي كل حِجّة
تمت من غير حَجّة وتُبتلى بالكُرَبِ
بالضم إثبات السبب والكسر وقت قد حُسِب
والفتح ما الله كتب ننسك منسك النبي
ولا تحين جُنّة ولا تَشَمُ جَنّة
تُرجم رجم جِنّة بالشُهُبِ ذات الذَنَبِ
بالضم درع ساترة والفتح فوز الآخرة
والكسر خلق لم نرَ من مارجٍ من لهبِ
يا منبعًا للكذبِ وزائفات الخُطَبِ والجور والتخببِ والعنت والتسببِ
يا سبخةً في الطلبِ وسيد التذبذبِ ودائم التهربِ ورائغًا كثعلبِ
أغراك زهو المنصبِ وحجم هذا المكتبِ

يا لاهطًا مرتبي وحارمي من رتبِ
اعمل تنل ما تبتغي واصل سبيل الدأبِ
شنشنةٌ أعرفها من كاذبٍ لأكذبِ
خُطّت بصدر الكتبِ وأُلقيت في غيهبِ
أكثر ما يغيظني أن تدّعي عدل نبي
أنت حريٌّ بالذي أعطيتني من نسبِ
تجور جور من مضى عصّار نُسغ القيقبِ
أنت الذي آخيتهم واخترت كل أجنبي
فلتخسؤوا أنت وهم ولتصطلوا باللهبِ
أقول قولًا خاتمًا مختصرًا للتعبِ
وعزة الله التي تعز مظلومًا كُبِ
وحق طه المصطفى الخاتم المنتجبِ
وكل برٍّ طيبٍ وحق أمي وأبي
الحشمة ليست لكم الحشمة للمرتبِ

وليست قيمة هذه القصيدة في هجائها فحسب، بل في قدرتها على استحضار عدد كبير من المثلثات اللغوية وإدماجها في نسيج شعري متماسك. فالشاعر لم يورد الألفاظ المثلثة على سبيل الاستعراض المعجمي، وإنما سخّرها لخدمة المعنى، فجاءت الحركة اللغوية جزءًا من الحركة الشعرية، وغدت المثلثات نفسها أداة للتصوير والإيقاع معًا.

وهكذا تبدو مثلثات قطرب أكثر من مجرد بابٍ من أبواب اللغة أو فصلٍ من فصول المعاجم، إنها شاهد على خصوبة العربية وقدرتها العجيبة على توليد المعاني من أدق الفروق الصوتية. فحركةٌ واحدة قد تنقل اللفظ من معنى إلى معنى، وقد تفتح أمام الشاعر أفقًا جديدًا للتصوير، وأمام الأديب سبيلًا أرحب للتعبير. وإذا كانت الأمم تتفاخر بسعة معاجمها وكثرة ألفاظها، فإن العربية تزيد على ذلك بأن تجعل الحركة نفسها مولِّدةً للمعنى، حتى يغدو اللفظ الواحد عالمًا تتعدد وجوهه بتعدد ما يعتريه من فتحٍ وكسرٍ وضم.